

القرآن المصدر الأول للتصوف

بقلم: الدكتور

محب طفي كمال وصفي

(٢)

أما القصص القرآني ، فهو ما تنصلح به نفس الصوفي وتزكو ، ويملاها عبرة وتبصيراً .

ومن أمثلة ذلك قصة بني اسرائيل ، فلها في الواقع دلالة صوفية يتغنى بها السالكون من أن ينتابهم الغرور . وتبين مغبة ذلك والاحوال التي يتردون فيها بسبب انحرافهم .

فبنى اسرائيل كانوا من الذين أنعم الله عليهم . وقال الله : يا بني اسرائيل اذكروا نعمة الله عليكم وأني فضلنكم على العالمين . . وقال موسى لقومه : يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحد من العالمين . .

إلا أنهم أدلوا بذلك وأفسدهم ما غرهم في دينهم وتبعهم النصارى في ذلك وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر من خلق . وقالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى . تلك أمانهم . .

وأدى ذلك بهم إلى إعراضهم عما أنزل الله ونقضهم ما عاهدوه ، وهم يظنون أنهم الآمنون سخطه ، المقربون منه . يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا . مع ان منهم كبار العلماء وأجلاء الاحبار ، ولكن صار عليهم بلا تقوى ، وعمهم بلا اكتراث وكانهم أخذوا على الله عهداً بالألأ يعذبهم .

وأدى بهم ذلك إن أن اتخذوا أحبارهم ورهبانهم إرباباً من دون الله . وجعل هؤلاء الرؤساء يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله . واشتروا بعهده الله وإيمانهم ثمناً قليلاً . وكفروا بآيات الله . وقتلوا الأنبياء بغير حق وقتلوا الذين يأمرون بالقسط من الناس . وسدروا في غيهم فكانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه . ولا يقبلون النصيح من بينهم . فغضب الله عليهم ولعنهم وجعل قلوبهم قاسية ، يحرفون الكلمة عن مواضعه ، ونسوا حظاً مما ذكروا به . ويفترون على الله الكذب ، ويلون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون .

وإن في هذه القصة التي استغرقت الكثير من صفحات القرآن الكريم لموعظة لمن يغتر بنفسه من أبناء الطريق ، وهم آمنون غضب الله .

ومن ذلك أيضاً قصة بلعم بن باعوراء وهو عالم من علماء بني إسرائيل أوتي علماً من كتاب الله ، وكان عنده اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب . فطلب منه قومه أن يدعو على موسى وقومه ففعل . فقال الله فيه : وائل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فاتبعه الشيطان فصار من الغاوين ، أى فلحقه الشيطان ولازمه وصار قريناً له والعياذ بالله بعد أن كان مرفوع المكانة عند الله . ومنهم من أضله العلم واغتر به كسقارون والسامري .

فأما قارون — فقد كان من قوم مرسى ، وكان ابن عم لموسى ، وكان يسمى المنور لحسن صورته قال النسفي وكان أقرأ بني إسرائيل للتوراه . ولكنه نافق كما نافق السامري . فبغى عليهم وأتيناه من الكنوز ما إن مفاتيحه لتنوء بالعصية أولى القوة . إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسى نصيبك من الدنيا ، بأن تقوم بواجب الشكر بالعمل الصالح ، واحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين ، قال إنما أوتيته على علم عندي ، فنسب لنفسه وجحد فضل الله ، أو لم يعلم إن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا

ولا يستل عن ذنوبهم المجرمون ؟ نخرج على قومه في زينته، قيل خرج يوم السبت على بقة شهباء عليها الأرجوان وعليها سرج من الذهب ومعه أربعة آلاف على زيه . وعن يمينه ثلاثمائة غلام وعن يساره ثلاثمائة جارية بيض عليهن الخلي والديباج . قال الذين يريدون الحياة الدنيا ، يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم . وقال الذين أتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون .

قال الله « نخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان من المنتصرين . وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون لو لا أن من الله علينا لحسف بنا ،

أما خبر السامري فقد جاء في سورة طه . وهو منسوب إلى قبيلة من بني إسرائيل واسمه موسى بن ظفر وكان منافقا . إذ رجع موسى من لقاء ربه بالطور فوجدهم يعبدون العجل . وقالوا ما أخلقنا موعدا بملكنا ، ولكننا حملنا أوزار أمن زينة القوم فقتلناها في نار أوقدها السامري ، وكذلك ألقى ما معه من الخلي . فأخرج لهم عجلا جسدا ، أي مسجدا ، له خوار صوت وكان يخور كما تخور العجول . فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى . فأقبل موسى يلومهم كل بدوره ، حتى قال للسامري « فما خطبك يا سامري قال بُصرتُ بما لم يبصروا به ، قال النسفي رأى جبريل عليه السلام على فرس الحياة . فقبضت قبضة من أثر الرسول أي جبريل على فرسه فنبذتها ، أي طرحها على السبائك ، وكانت الفرس حينما اتجهت خلفت آثار الحياة والروح . فلما ألقى هذه القبضة على الذهب وبث فيها الحياة ، قال : وكذلك سولت لي نفسي ، قال موسى : اذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس ، أي لا يمسه أحد ، فمنع من مخالطة الناس منعاً كلياً وحرم عليه ملاقاته ومكالمته ومعاملته ، وكان به مرض إذا مسه أحد سرت الخي من السامري إليه . قال النسفي وكان يهيم في البرية يصبح لامساس وقيل أراد موسى أن يقتله رحمة فمنعه الله تعالى منه . ثم له بعد ذلك موعد أن يخلفه في الآخرة يكون عذاباً فيه عظيم .

وذلك مثل من الغرور بالعلم ، والتردى في الوحل بسبب الكشف
والاختصاص وقانا الله سوء الخاتمة .



من أجل ذلك كله كان القرآن ربيع قلوب العابدين . وهم لا يفتح إلا لمن جاشت
نفسه بالمواجد الصادقة وهامت روحه بالتوبة والندم وإلقاء الزمام إلى الله
والتوكل عليه والانس به والمحبة والفناء فيه . فمن كان هذا شأنه ، تفتح قلبه وقت
القراءة فوزن الكلام حق ميزانه ، وأعطاه قدره من الفهم ، فلا يغفل عن شاردة
فيه ولا واردة ، ويرى في كل كلمة حجة ، ويطبقة على حال نفسه وحال من يخاطبهم ،
فيفهم الأمور على حقائقها . ويرى نقص نفسه وأسباب ما فيه من الحجب والغفلة
والكفر والشرك والنفاق . ويرى الناس على حقائقهم فيراهم على قدم بعض
الصالحين والمؤمنين ، أو على قدم بعض المجرمين المضلين ، فيلمحه ذلك علما صادقا
ويذوعا حقيقيا من المعرفة .

ان هذا القرآن فيه ذكرنا . وهو متحف كبير لجميع أجناس البشر ، وجميع
أصناف مجرميه وصالحه . ولذلك فهو يصدق في كل وقت ومكان فما فيه من ذكر
بنى إسرائيل ، ومعانيد قريش ، وعاد وثمود وفرعون وهامان وقارون وأكابر
المجرمين لم ينقص بل هم يعيشون بيننا وهم على أقدامهم .

ومن أجل ذلك أمر الله إذا قرئ القرآن أن نستمع له وننصت لعلنا نرحم
وقال فيه أنه لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا . وقال
« لو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ، بل لله
الأمير جميعا » .

وأمرنا بالخشوع في تلاوته ، والبهكاء . وورد في الحديث الصحيح أن رسول
الله بكى من قراءته ، وان أبا بكر كان بكاء .

وقد جاء في الحديث الصحيح عن البخاري رضى الله عنه أنه السكينة والملائكة
تنزل عند تلاوته . فقد قال الليث حدثني يزيد بن المهدي عن محمد بن إبراهيم عن أسيد
ابن خفيص قال بينا كان هو يقرأ في الليل سورة البقرة ، وقرسه مربوط إذ جالت

الفرس فسكت فسكتت . فقرأ فجالت الفرس . فسكت فسكتت . ثم قرأ فجالت
 الفرس فانصرف وكان ابنه يحيى قريباً منها فاشفق أن تصيبه . فلما اجترأ ورفع
 رأسه إلى السماء حتى ما يراها . فلما أصبح حدث رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
 فقال اقرأ يا ابن حضير اقرأ يا ابن حننير . قال فاشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى
 وكان قريباً منها فرفعت رأسي فانصرفت فرفعت رأسي إلى السماء فإذا مثل الظله
 فيها أمثال المصاييح فخرجت لا أراها قال وتدرى ما ذاك قال لا . قال تلك الملائكة
 دنت لصوتك . ولو قرأت لاصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم .
 (البخارى على حاشية السند . البابى الحلبى الجزء الثالث صفحة ٢١٢) .

وعن مسلم رضى الله عنه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال انطلق رسول الله
 صلى الله عليه وسلم فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين
 الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم
 فقالوا ، حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب . قالوا : ما ذاك
 إلا من شئ حدث . فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا
 الذى حال بيننا وبين خبر السماء فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها
 فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة وهو بنخل عامدين إلى سوق عكاظ ، وهو يصلى
 بأصحابه صلاة الفجر . فلما سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا هذا الذى حال بيننا
 وبين خبر السماء ، فرجعوا إلى قومهم فقالوا يا قومنا انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى
 إلى الرشـد فآمننا به وإن نـشرك ربنا أحدا فانزل الله عز وجل على نبيه صلى الله
 عليه وسلم قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن . . (الجزء الثانى صفحة ٣٥
 طبعة محمد صبيح) .

هذا بعض المسكاشفة عن القرآن وتلاوته مما ورد عن الرسول عليه الصلاة
 والسلام بالسند الصحيح . وأثره الروحى والباطن ليس فى القارىء فحسب ،
 بل فى عوالم الملائكة والجن .

وهذا بمض ما حواه من سند الصوفية ودعائم منهاجهم .